

معركة أعقبها قيام الحروب الصليبية

الحلقة

14

« ملاذ كرد » من أيام المسلمين الخالدة



معركة ملاذكرد (بالتركية: **Malazgirt Meydan Muharebesi**) هي معركة دارت بين الإمبراطورية البيزنطية والسلطنة السلجوقية في 26 أغسطس 1071 بالقرب من ملاذكرد (ملازغرد حالياً في محافظة موش، تركيا). لعبت الخسارة الحاسمة للجيش البيزنطي وأسرى الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس دوراً مهماً في تضعيف الحكم البيزنطي في الأناضول وأرمينيا، وسمحت بالتطريك التدريجي للأناضول.

ينقل المؤرخ عن الدين بن الأثير مشهداً مؤثراً من معركة ملاذكرد قائلاً: «لما كان تلك الساعة صلي بهم وبكى السلطان (ألب أرسلان) فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف فما ههنا سلطان يأمر وينهى، والقي القوس والنشاب (السهم)، وأخذ السيف والديوس (آلة حربية)، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكرة مثله وليس البياض، وقال: إن قتلت فهذا كفتي، وزحف إلى الروم وزحفوا إليه، فلما قاربهم ترجل وعقر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء، ثم ركب وحمل إليه العساكر معه، فحصل المسلمون في وسطهم، وحجز الغبار بينهم، فقتل المسلمون فيهم كيف شاءوا، وأنزل الله نصره عليهم، فانهزم الروم، وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى وأسرى الروم» [1].

رأينا في تقريرنا السابق دور السلطنة المهمة في إعادة بث الروح في الدولة العباسية التي كانت ترزح تحت الضغوط والهيمنة البويهية التي خالفتها سياسياً ومذهبياً، وكيف تم توحيد أقاليم العراق وإيران ووسط آسيا وشمال الشام تحت راية السلطنة، هذا الاتحاد الذي أعاد الأهمية الجغرافية والعسكرية لهذه الدولة الوليدة، التي كان لها مشروع واضح في زمن السلطان ألب أرسلان، تمثل هذا المشروع في توسيع رقعة الدولة والعمل على الوحدة السياسية والثقافية بين أقطارها، والمواجهة الصريحة والمباشرة للروم البيزنطيين بدلاً من أسلوب الغارات القديمة للسلطنة وبعض القبائل التركمانية الأخرى التي كانت نتائجها غير مؤثرة.

وكان مما شجع السلطان ألب أرسلان على التفكير في غزو بلاد الروم أنه وثق صلته بالدولتين الغزنوية والخانية في آسيا حتى يؤمن ظهره، فلا يطعن من الخلف، وهو مشغول بغزو الروم، فربط دولة السلطنة برباط المصاهرة مع هاتين الدولتين بأن تزوج أحد أبنائه ابنة السلطان إبراهيم الغزنوي وتزوج ابنة الأكبر ملكشاه ابنة طمغاچ ملك الخانيين، وحيات هذه المصاهرات السياسية أن يفتقر ألب أرسلان لغزو



نتائج ملاذكرد

تشبه معركة ملاذكرد إلى حد كبير في النتائج معركة اليرموك التي استولى بعدها المسلمون على كامل بلاد الشام، وانتزاعها من يد الرومان البيزنطيين في عصر الخلافة الراشدة على يد الصحابي الجليل، والقائد العسكري الفذ خالد بن الوليد؛ فقد مهدت «ملاذكرد» الطريق أمام جيوش السلطنة للتوغل في بلاد آسيا الصغرى، واقتطاع هذه الأقاليم الأناضولية المهمة من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية لأول مرة منذ قيامها.

ترتب على ذلك أن زادت هجرة التركمان إلى عمق الأناضول واستقرارهم في تلك البقاع، وساعد على ذلك الانشقاق الذي حصل في صفوف البيزنطيين في أعقاب المعركة، حيث بدأ الرومان «اليونانيون» بترك أراضيهم، والتوجه نحو الغرب، فأصبحت

مناطق عديدة خالية من السكان، ونظراً لكون التركمان شعباً بدائياً رعوياً لم يهتموا بالزراعة، فتحوّل مناطق زراعية عديدة داخل آسيا الصغرى إلى مناطق جرداء، وأدى ذلك إلى حرمان البيزنطيين من مصدر مهم للحبوب، ولم يعد بإمكانهم تجنيد سكان آسيا الصغرى في جيشهم، فزاد ذلك من ضعف البيزنطيين.

هكذا، كون التركمان بعض الإمارات المستقلة في الفترة ما بين عامي (463هـ-470هـ/1071-1077م) في كل من ماردين وقيصارية وسيواس وتوقات ومرعش وأرزنجان في شرق ووسط الأناضول، لكن في العام 470هـ، وتبويض من السلطان السلجوقي الأشهر ملكشاه بن ألب أرسلان، يتجه ابن عمه سليمان بن قتلش السلجوقي إلى بلاد الأناضول انطلاقاً من حلب لينتشر

الهزيمة بعيون البيزنطيين

بيد أن قرار السلطان السلجوقي بإطلاق سراح عدوه يعد لاقتا وغريباً، خاصة أن رومانوس أراد القضاء على الدولة السلجوقية ذاتها ولم تكن حملته مجرد حملة عابرة، لكن يبدو أن بعض القلائق في وسط آسيا داخل الأسرة السلجوقية التي اضطرت السلطان السلجوقي ألب أرسلان إلى قبول الصلح مع العدو الروماني، فضلاً عن الغدبة الكبيرة التي أثقلت كاهل الدولة البيزنطية، يضاف إلى ذلك إعلان التبعية السياسية البيزنطية للسلطنة للسلطنة لأول مرة في تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم، وهو ما اعتبره البيزنطيون في القسطنطينية حياة أوجبت قتل رومانوس بعيد ذلك لحسن الحظ، فإن حفيد القائد العسكري للجنح الأيسر للبيزنطيين في معركة ملاذكرد قد خلد ذكر هذه الهزيمة برواية جده للأحداث التي رآها وشاهدها بنفسه، هذا الحفيد هو المؤرخ البيزنطي نقفور بريثيوس، وزوج آن كومنين ابنة الإمبراطور البيزنطي الكيسوس كومنين (1081-1118/512هـ)، لذا يعتبر تاريخه لهذه المعركة التي غيرت مجرى تاريخ العصر الوسيط بالسيطرة الإسلامية على كامل الأناضول مهما لمعرفة وجهة النظر البيزنطية المقابلة في تلك الأحداث.

يرى نقفور أن الإمبراطور البيزنطي قد أخذه العجب والكبر بعد سيطرته على منبج وبعض القلاع والحصون في شمال بلاد الشام، حيث لم يجد مقاومة تذكر في سنة (462هـ/1070م)، وأنه اجتمع بجبار مستشاريه وقادته العسكريين لوضع خطة قتال شاملة لاستئصال قوة السلطنة المنتامية في الجنوب والشرق، ذلك الاجتماع استشار فيه الإمبراطور قاداته حول أمرين: مواصلة الزحف على بلاد فارس لقتال السلطنة في عقر دارهم أم البقاء في أراضي الإمبراطورية البيزنطية انتظاراً لوصولهم؟

انقسم المستشارون إلى قسمين: الأول فريق «المنافقين» -بحسب رأي نقفور بريثيوس وجده القائد البيزنطي في تلك المعركة- الذي رأى عدم الانتظار إطلاقاً والزحف لقتال السلطان ألب أرسلان، وعارض هذا الرأي الفريق الثاني وعلى رأسه جد المؤرخ نقفور؛ وأوضح أن هذه الخطة تتطلب تحصين المدن المجاورة لمعسكر الجيش البيزنطي، وإحراق القرى حتى يحرم السلطنة من التزود بالموثمن وهو أمر شديد الصعوبة، لكن الإمبراطور لم يسمح للفريق الثاني.

سلطان العالم



بعد انتصار المسلمين في هذه المعركة تغيرت صورة الحياة والحضارة في هذه المنطقة؛ فاصطبغت بالصيغة الإسلامية بعد انحسار النفوذ البيزنطي تدريجياً عن هذه المنطقة، ودخول سكانها في الإسلام، والتزامهم به في حياتهم وسلوكهم.

وواصل الأتراك السلطنة غزوه ومناطق أخرى بعد ملاذكرد، حتى توغّلوا في قلب آسيا الصغرى، ففتحوا قونية وأق، ووصلوا إلى كوتاهية، وأسسوا فرعاً لدولة السلطنة في هذه المنطقة عرف باسم سلطنة الروم، ظل حكمه يتناوبون الحكم أكثر من قرنين من الزمان بعد انتصار السلطنة في ملاذكرد، وأصبحت هذه المنطقة جزءاً من بلاد المسلمين إلى يومنا هذا.

وكان من ثمار دخول هذه المنطقة في حوزة السلطنة انتشار اللغتين العربية والفارسية، وهو ما كان له أثره في مظاهر الحضارة منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا، غير أن هزيمة الروم في معركة ملاذكرد جعلتهم ينصرفون عن هذا الجزء من آسيا الصغرى.

الاستعداد للقاء

جهز الإمبراطور البيزنطي رومانوس جيشاً ضخماً يتكون من مائتي ألف مقاتل من الروم والروس والكرج والأرمن والخزر والغرجية والبلغاريين، وتحرك بهم من القسطنطينية عاصمة دولته واتجه إلى ملاذكرد حيث يعسكر الجيش السلجوقي.

أدرك ألب أرسلان حرج موقفه؛ فهو أمام جيش بالغ الضخامة كثير العتاد، في حين أن قواته لا تتجاوز عشرين ألفاً، فبادر بالهجوم على مقدمة جيش الروم، ونجح في تحقيق نصر خاطف يحقق له التفاوض العادل مع إمبراطور الروم؛ لأنه كان يدرك صعوبة أن يدخل معركة ضد جيش الروم؛ فقواته الصغيرة لا قبل لها بمواجهة غير مضمونة العواقب، فأرسل إلى الإمبراطور مبعوثاً من قبله ليعرض عليه الصلح والهدنة؛ فأساء السلطان، وطالبه أن يبلغه بأن الصلح لن يتم إلا في مدينة الري عاصمة السلطنة.

أيقن السلطان الأ مقر من القتال بعد أن فشل الصلح والمهادنة في دفع شبح الحرب؛ فعد إلى جنوده يشعل في نفوسهم روح الجهاد وحب الاستشهاد، وأوقد في قلوبهم جذوة الصبر والثبات، ووقف فقبيه السلطان وإمامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري يقول للسلطان موقياً من عزمه: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة.

وحين دانست للقاء مع (آخر من) الفعدة 463 هـ / أغسطس 1071 م) صلي بهم الإمام أبو نصر البخاري، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، وليس البياض وتحنط، وقال: إن قتلت فهذا كفتي.

أحداث المعركة



أحسن السلطان ألب أرسلان خطة المعركة، وأوقد الحماسة والحمية في نفوس جنوده، حتى إذا بدأت المعركة أقدموا كالأسود الضواري قتلته بما يقابلها، وهاجموا أعداءهم في جرأة وشجاعة، وأمعنوا فيهم قتلاً وتجريحاً، وما هي إلا ساعة من نهار حتى تحققت النصر، وانتشع غبار المعركة عن جثث الروم تملأ ساحة القتال.

في المعركة خطب السلطان في جنوده قائلاً: إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت فتعنته من الله عز وجل وإن كانت الشهادة فهذا كفتي... اكلموا معركتكم تحت قيادة ابني ملكشاه ولما تقارب الجيشان طلب السلطان

من إمبراطور الروم الهدنة فرفض، فخطب السلطان في جنوده قائلاً: من أراد الانصراف فلينصرف، ما ههنا سلطان يأمر وينهى ثم ربط ذيل فرسه بيده وفعل العسكرة مثله وليس البياض وقال: إن قتلت فهذا كفتي

ووقع الإمبراطور البيزنطي أسيراً في أيدي السلطنة، وسبق إلى معسكر السلطان ألب أرسلان الذي قال له: ما عزمت أن تفعل بي إن أترنتي؟ فقال: أفعل القبيح، فقال له السلطان: فما تظن إنني أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلني وإما أن تشرب بي في بلاد الشام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك، فقال السلطان: ما عزمت على غير هذا.